

الفصل الخامس

النظريات السكانية

تمهيد عام :

المؤلف عادة عند تناول النظريات المتصلة بالدراسات السكانية ، أن يقتصر الباحث على عرض وتحليل ونقد الآراء التي تعالج الجانب العددي الكمي للسكان من ناحية تأييد زيادة السكان أو ترجيح تحديد النسل ، ولكننا رأينا ، تطبيقاً للمنهج التكاملي ، ألا نغفل الجوانب الكيفية النوعية للنظريات السكانية ، ولذلك فقد قسمنا هذه النظريات إلى قسمين عامين : قسم ^① يعنى بطريق مباشر أو غير مباشر بالصفات الكيفية النوعية ، وله اتجاه هادف للارتفاع بالصفات والخصائص الكيفية للسلالة البشرية وفي نطاق الإمكانيات السكانية في الوحدات السياسية ، وهذا القسم يعتمد في المقام الأول على تقدم الدراسات الحيوية البيولوجية ومحاولة الاستفادة منها بتطبيقها وتجريبها على المجموعات السكانية ، ويعتمد كذلك على تطور الدراسات الاجتماعية في النواحي التطبيقية العملية والتشريعية التي تكفل إطراد تقدم الخصائص النوعية السكانية ، باتخاذ إجراءات وضرابط اجتماعية إيجابية أو سلبية وقائية ، وتنظم هذا القسم من النظريات النوعية ، مجموعة الآراء الايوجينية التي تلتقي في المحاولات المتابعة لرقى وتحسين الفروع الإنسانية ، والدراسات التي أجريت على الخصوبة السكانية بالنسبة لفروع العائلات البشرية ومختلف المستويات والطبقات الاجتماعية .

أما القسم الثاني من النظريات الكمية العددية ، فيرتكز فيما نعتقد على النسبية الاجتماعية ، بمعنى أننا لا نؤمن بعمومية تلك النظريات وصلاحتها التطبيقية على المشاكل السكانية في جميع المجتمعات الإنسانية ، إذ أن لكل مجتمع ظروفه السكانية ، وأحواله المعيشية ، وأيديولوجيته الإصلاحية ،

ومعتقداته الدينية ، وعاداته الجماعية ، ونظمه السياسية ، ومعاييره وقيمه الأخلاقية ، إلى جانب الاعتبارات الاقتصادية ، التي تعمل متكاملة وبصورة إيجابية في الحكم على صدق نظرية من النظريات السكانية في فحواها العام أو محتواها المطلق أو تفرعاتها الجزئية على مجتمع من المجتمعات ، وفي أغلب الأحيان تعكس نظرية العالم الظروف والمقتضيات الاجتماعية للمجتمع الذي يعيش فيه في فترة زمنية معينة ، ولما كانت الجماعات في حالة دينامية متطورة ، فإن ما يصدق عليها أو يصلح تطبيقه فيها في مرحلة من مراحلها لا يصدق ولا يصلح في مرحلة أخرى ، ومن الأخرى أن النظرية التي قد تنطبق على الحالة السكانية لدولة من الدول لا تنطبق على غيرها ، ومن هنا وجب أن ننبه الأذهان إلى خطورة استمداد نظريات غريبة في علاج مشاكلنا السكانية ، إذ أنه لا بد وأن تنبثق سياستنا السكانية من واقع حياتنا الاجتماعية وأيديولوجيتنا الفكرية العقائدية .

المبحث الأول

النظريات الكيفية النوعية

المطابق الأول

اتجاهات تحسين النسل

ترتبط النظريات الكيفية النوعية بالاتجاهات النظرية والعلمية التطبيقية لتحسين السلالة البشرية ، ومن ثم تحسين نسل سكان المجتمع . وهذه الاتجاهات والأفكار قديمة ، فقد نادى بها ومارستها فلاسفة وشعوب كثيرة ، فيجد أن الشعب الأسبرطي القديم يأخذ ببعض الممارسات التي تقصد إلى تحسين نوع سكانهم لضمان التأكد من سيطرتهم على البلاد التي تستعمرها ، ومن أمثلة هذه الممارسات : قتل الأفراد عديمي الفائدة ، و تقييد الهجرة بالنسبة لسكانهم المواطنين ، و تشجيع الزواج بينهم دون الإمتزاج بسكان البلاد الخاضعة لسكانهم ، بل كانوا يمارسون من فترة لأخرى عملية الإبادة بالجملة لسكان تلك البلاد لاعتقادهم بأن انسلابهم ضئيف يورث الصفات النوعية الضعيفة لشعوبهم .

كذلك مارس عرب الجاهلية كثيرا من الممارسات التي تهدف إلى تحسين نوعية سكانهم ، فكانوا يقرون نوعا من الزواج المؤقت بقصد الوصول إلى هذه الغاية ، وكانوا يتأذون ويتشاءمون من مشوهي الخلقة وضعافى البنية ^(١) .

وقد عبر عن هذه الفكرة في التفكير الغربى الشاعر اليوناني القديم

(١) انظر تفصيل ذلك في مقال عن العرب وعلم تحسين النسل .

مجلة العلوم العدد الأول يناير سنة ١٩٥٨

(. السكان)

تيوجنيز Theognis في القرن السادس قبل الميلاد ، وعالجها في ثانيا قصائده ، وتلاه بعد ذلك أفلاطون وأرسطو ، وقد أكد كل منهما أهمية قوة السلالة ومثانة البناء الفيزيقي للجسم ، ونجد هذا واضحاً في جمهورية أفلاطون وكيف أن التربية والنظر والزواج كانت ترتبط بهذه الغاية وهي إنتاج سكان صالحين جسماً وعقلاً . . .

كما اقترح أرسطو في هذا المجال طائفة من الممارسات الشاذة العنيفة واستساغ الاجهاض وإعدام الأطفال ناقصي التركيب Deformed أو المشوهين وفلسدى الأخلاق ، واقترح تحديد السن الذي يجب فيه أن يقلع الإنسان عن الزواج أو عن الإنسال ، زاعماً أن الرجال المتقدمين في السن ، شأنهم شأن الأحداث الصغار لا ينجبون إلا مخلوقات ناقصة جسماً وعقلاً ، ونسل الشيوخ في نظره إنسال ضعيف قد لا يثمر فيه العلاج ، فيجب أن يمتنع الفرد عن الانسال بعد أن يبلغ الوقت الذي يصل فيه عقله إلى غاية نموه ، وقد حدد هذا بصفة عامة بسن الخمسين (١) .

وقد أظهر الرومان اهتماماً بهذه الاتجاهات النوعية في تحسين سلالاتهم (٢) وفي القرون الأولى من المسيحية وكذلك في العصور الوسطى اختفى الاهتمام بوسائل تحسين النسل ، كما تضاعف الاهتمام بمسائل العلمية الأخرى . ومع ذلك فقد كنا نجد بين الحين والآخر اهتماماً من بعض المفكرين الذين كتبوا في الموضوع من وجهات النظر الخاصة . وقد كان الناس وخاصة في أوروبا طوال هذه الفترة يأخذون ببعض المعتقدات البيوجينية ، من ذلك أن زواج رجل من شمال أوروبا بامرأة من جنوبها أو العكس ينتج نسلاً قرياً ، ومنها أيضاً تحديد سن الزواج ، فنجد كولونا Colonna ، يحذر من أن الزواج المبكر ربما ينتج نسلاً ضعيفاً كما اعتقد

(١) الدكتور مصطفى الحشاش : النظريات والمذاهب السياسية ص ٨٩ .

(٢) Duncan : Race and Population Problems pcs

« بوترو Bostro »، أن التباين الكبير في السن بين الزوجين يؤثر في نسلهما .
وفي مستهل القرن السابع عشر أحيى الفيلسوف الراهب « كيانيل » ،
بعض نظم التحسين وكانت هذه في معظمها قائمة على آراء أفلاطون
في هذا الشأن (١) .

علم تحسين الوراثة :

هذا وتعتبر الحركة الحديثة لتحسين سلالة السكان ثمرة الدراسات العلمية
في الوراثة ، وقد كان المحرك الأول لها فرانسيس جالتون F. Galton
ويعتبر مقاله عن « الوراثة والعبقرية والشخصية Heredity, talent
and Character » ، الذي نشر سنة ١٨٦٥ وكتابه « النبوغ الموروث
Hereditary genius » ، البداية الحقيقية لعلم « تحسين النسل Eugenic »
حاول جالتون أن يثبت أن الأولاد ذوى المقدرات المميزة ينحدرون
من آباء ذوى مقدرات فوق المستوى العادى ، وقام بدراسات في السلالات
أدت به في النهاية إلى تقرير أن النبوغ والانحطاط أشياء تنتقل بالوراثة ،
وقد ابتكر جالتون بعض الطرق الرياضية لقياس درجة شدة الوراثة ،
وكانت هذه الطرق نفسها أساسا اعتمد عليه في الدفاع عن أهمية مقاييس
تحسين السلالات . وقد تقدمت بحوثه على يد مساعده وخليفته « كارل
بيرسون Karl Pearson » ، وقد حاول كل من جالتون وبيرسون
ابتكار بعض الوسائل التي يمكن بها التنبؤ بالخصائص العامة للأجيال اللاحقة
التي تتفرع عن والدين متجين ذوى طابع معين ، وذلك بقصد جعلها أساسا
يرتكز عليه التطبيق العملي للاختيار السلالى في الانسان (٢) .

(١) المصدر السابق .

Duncan Race and Population Problems

Duncan Race and Pop. Prob. P. 66 (٢)

وفد واصل البحث في هذا الموضوع أحد أتباع جالتون وهو
«وليام جرج William Gerg» الذى نشر سنة ١٨٧٢ كتابه «الغاز الحية
Enigmas of life» الذى دعا فيه إلى أننا يجب ألا ندع أجيال الضعفاء
وفاقى التركيب deformed والمشوهين يعيشون وينجبون ليضاعفوا
في أمراض المجتمع وآلامه... يجب ألا نسمح بالحياة إلا للأقرباء المعافين
ليتكاثروا ويكونوا قوة في المجتمع.

ومنذ الإعلان عن هذه الآراء وانتشارها أخذت حركة البحوث الخاصة
بتحسين السلالة تخطو إلى الأمام. حتى أنه في السنين الأخيرة طغت البحوث
اليوجينية على تلك المنصبة على النظريات التقليدية للوراثه.

وقد اتجهت هذه البحوث نحو كشف المسائل الآتية :

- ١- مدى إمكانية وراثه الخصائص الفيزيكية .
- ٢- مدى إمكانية وراثه الخصائص العقلية والنفسية .
- ٣- الوسائل الإيجابية والسلبية التى يمكن بها تحسين الخصائص العقلية
والفيزيكية للأجيال التالية .

وقد تعارف المشتغلون باليوجينية على أنها تعنى على حد تعبير جالتون
«دراسة الوسائل العلمية والاجتماعية التى بمقتضاها يمكن أن نحسن أو نرفع
من شأن الخصائص الوراثية للأجيال التالية» سواء كان هذا التحسن من
الوجهة الفيزيولوجية أو من الناحية العقلية .

ولاشك أن الناس يتمايزون أو يختلفون فرداً عن آخر في ضوء
ما يرثونه من خصائص وراثية وصفات سلائية انحدرت إليهم من أسلافهم
بصورة عامة ووفقاً للبيئات المحيطة بهم .

واصطلاح Euginics أصبح في الوقت الحالى يقتصر على كافة
المحاولات العملية والعلمية التى تؤدي إلى تحسين الصفات الوراثية والخصائص

السلالية للأجناس البشرية فقط بعد أن كان العلم في سنواته الأولى وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر يشمل في نطاقه كلا من النبات والحيوان... ومن أجل هذا كانت الإقتراحات البيوجينية في وقتنا هذا تهدف في النهاية إلى تحسين اجتماعي .

وهذه الوسائل المتعلقة بتحسين السلالات وخصائصها الوراثية تختلف عن طائفة أخرى من الوسائل والإقتراحات التي تعنى بنفس الغاية ولكنها تهتم بتحسين الظروف البيئية والاجتماعية . بينما الوسائل التي تدخل تحت اصطلاح Enginies وسائل من طبيعة بيولوجية متعلقة بالتركيب المادي للإنسان Human meterial . وإن كانت كل من الوسائل المتعلقة بالجانب المادي والجانب البيئي الاجتماعي تسيران جنباً إلى جنب من أجل الارتقاء بالإنسان ككل ، فلا شك أنه للحصول على نتائج إيجابية في هذا الصدد لا من أن تتكامل كلا الناحيتين .

وينبغي أن نشير إلى أن علم تحسين السلالات . الذي ينعى إلى جانب تحسين الخصائص والصفات السلالية للإنسان ، بدراسة الدور الهام الذي تلعبه تلك الصفات السلالية في تحديد خصائص الأجناس البشرية المتباينة وإظهار ما تنطوي عليه من مميزات أو قدرات مميزة ، ويجدر بنا أن نشير إلى أن النظريات الكيفية النوعية في السكان تهدف إلى :

(أ) منع تزايد النسل من جانب الأشخاص مشوهي الخلقة .

(ب) تشجيع التزاوج من جانب الأصحاء عقلياً وجسدياً .

هذا وقد سنت بعض الدول تشريعات لمنع تزاوج ضعاف العقول والمصابين بالنقص العقلي . وتعتبر روسيا السوفيتية في مقدمة الدول التي سلكت هذا المسلك وكذلك بعض الولايات الأمريكية . . وحددت الحالات التي يمتنع فيها الزواج بصفة عامة كالآتي :

١ — حالات النقص العقلي .

٢ — حالات الضعف العقلي

٣ — حالات الصرع Eplipsy .

٤ — الاجرام بالعادة .

٥ — حالات إدمان الخمر .

وكثيراً ما تلجأ بعض الدول إلى وسائل العزل والتعقيم للحد من تناسل ضعاف العقول ..

وتلجأ كثير من المجتمعات في الوقت الحاضر إلى اتباع هذه الطرق لحماية شعوبها من مظاهر النقص والضعف والتفكك ، دون أن يعنى ذلك بالضرورة وفي كل الأحوال الحد من الزيادة السكانية أو تحديد النسل وهذا واضح في الاتحاد السوفيتي فع ان الدولة تهدف في سياستها السكانية العامة إلى تشجيع التناسل فإن ذلك لم يمنع السوفييت من الأخذ بالوسائل الحديثة في تحسين السلالات .

وتعد انجلترا في مقدمة الدول التي قطعت شوطاً بعيداً في ميدان تحسين السلالات وتدلنا الاحصاءات الأخيرة لعام ١٩٥٣ أن حوالي ٥٠,٠٠٠ شخص من ناقصي التركيب العقلي أو الفيزيقي قد تم وضعهم في معازل خاصة تحت المراقبة .

ولكن سياسة العزل هذه تكلف الدولة نفقات باهظة وترك أثراً سيئاً في نفسية المعزولين خاصة ، هؤلاء الذين كان يمكنهم بشيء من التوجيه والترشيد أن يعالجوا أنفسهم أو يتمتعوا من تلقاء أنفسهم عن التناسل دون إجبار من جانب السلطات الرسمية .

وما يجدر الإشارة إليه ، أن تقدم الدراسات النوعية للسكان قد تقدمت تقدماً ملموساً في بريطانيا بفضل الجهود التي بذلها جالتون F. Galton .

فقد قام بدراسات أيجونية أدت به في النهاية إلى تقرير أن النمو والاختطاط في الصفات النوعية للسكان تنتقل بالوراثة، وابتكر عدة طرق رياضية لقياس مدى تركيز العوامل الوراثية في تلك الصفات Intensity of Inheritance، وتقدمت بحوثه على يد كارل بيرسون Karl Pearson، وبفضل جهود هذين العالمين زاد الانتباه إلى أهمية هذه الدراسات في بريطانيا، ففي عام ١٩٠٤، أسس جالتون في جامعة لندن جماعة للبحث في وسائل تحسين النسل، وتطورت هذه الجمعية فيما بعد إلى ما يعرف باسم معمل فرانسيس جالتون للدراسات القومية لتحسين النسل.

Francis Galton Laboratory of National Eugenics

وقد ساهم العالم بيرسون بجهوده في هذا المعمل منذ عام ١٩٠٧. وفي عام ١٩٠٨ تأسست « جمعية التربية الأيجونية » The Eugenics Educational Society برئاسة ليونارد دارون Leonard Darwin. وانتشرت فروع هذه الجمعية في أنحاء متفرقة من الجزر البريطانية. والملاحظ بصفة عامة أن الدراسات النوعية للسكان في بريطانيا قد تركزت أساساً على سياسة ضبط ضفاف العقول والعناية بهم ^(١).

ويعتبر الكسندر جراهام بيل Alex. Graham Bell، رائد الأبحاث المتعلقة بتحسين النسل في الولايات المتحدة ويخلفه من الاهتمام بهذه المباحث وتدعيمها العلامة دافينبورت Davenport الذي أسس في عام ١٩١٠، مصلحة تسجيل مباحث علم تحسين النسل ^(٢) وحددت مهمتها فيما يلي :

(١) تقوم هذه المنظمة بنشر سلسلة محاضرات ومجلة تحت اسمها Annals of Eugenics

(٢) تنشر هذه الجماعة مجلة ربع سنوية اسمها Eugenics Review

(٣) راجع كتاب Hogben ; Genetic Principles chap 8.

Encyclopedia Americana. Vol. 10

راجع بحوث علم القياس الحيوى Eugenics Record Office في مجلة Biometry

The Eugenics Record Office, N. Y. (٤)

- ١ — خدمة الاهتادات الخاصة بتحسين النسل .
- ٢ — عمل سجل تحليلي لخصائص الأسر الأمريكية .
- ٣ — تدريب خبراء ميدانيين لجمع المعلومات التي تهتم الدارسين لوسائل
تحسين النسل .

- ٤ — تسمية الوعي المبدائي الذي يساعد على جمع هذه المعلومات .
- ٥ — التعاون مع المؤسسات والأفراد والفئات التي تهتم بالدراسات
التحسينية للنسل :

- ٦ — بحث وسائل وأساليب الوراثة النوعية للخصائص الإنسانية .
- ٧ — بذل المشورة بخصوص الصلاحية السلالية بالنسبة لما يعقد
من زيجات .

ثم تتابعت بعد ذلك الهيئات والمؤسسات التي تعنى بالبحوث السلالية ،
مثل رابطة الدراسات الأيوجينية^(١) وجماعة علم تحديد النسل الأمريكية^(٢)
التي تأسست في عام ١٩٢٦ وزاد نشاطها ابتداء من عام ١٩٣٠ حين حددت
ونظمت قواعد وقوانين الهجرة إلى الولايات المتحدة ، وقد برز نشاط
هذه الجماعة بشكل ملحوظ في مجلاتها ، وخاصة مجلة « تحسين النسل »
Eugenics التي تغير اسمها إلى « مجلة الشعوب ، Peoples » في عام ١٩٣١ .
هذا وقد استجابت عدة جامعات ومؤسسات تعليمية في أمريكا لهذه
الحركة الأيوجينية التي تعنى بالدراسات النوعية للسكان ، وانتشرت فروع
جماعة دراسات تحسين النسل في سائر مناطق الولايات المتحدة الأمريكية ،
وازداد هذا الاتجاه نموا وازدهارا بإنشاء مؤسسة تحسين السلالة

(1) Eugenics Research Association.

التي تصدر مجلة باسم Eugenical Review

(2) American Eugenics Society.

Encyclopedia Americana. Vol. 10. p. 570.

في ميتشيغان^(١) ومؤسسة رفع مستوى الجنس البشري Human Betterment Foundation ومعهد دراسة العلاقة الأسرية^(٢) وكلاهما في كاليفورنيا ، ثم جماعة التربية الأيو جينية في شيكاغو^(٣) وكذلك جمعية جالتون Galton في نيويورك^(٤) .

وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإننا نلمس انتشار الدراسات النوعية للسكان في كل من ألمانيا وفرنسا والسويد وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفيتي ، وقد تبلورت هذه الدراسات في الاتحاد الدولي للمنظمات الأيو جينية^(٥) الذي يصدر مجلته الموسومة باسم Eugenic News ، وقد باشر نشاطاً مرموقاً في تنظيمه ودعوته لعدة مؤتمرات دولية لمناقشة المسائل النوعية المتعلقة بالسكان وتحسين السلالات .

وحامدي القول ، يمكننا أن نقرر بوجه عام أن الدراسات النوعية للسكان قد خطت خطوات واسعة وتقدمت تقدماً ملحوظاً في أوروبا وأمريكا ، وانتقلت من النطاق الأفريقي القرمي الوطني إلى المجال الإنساني الدولي .

ولا يسمح لنا المجال بذكر تفصيلات محاولات أصحاب النظريات النوعية ولكننا سنكتفي بأن نشير إلى أهم الآراء التي قيلت بهذا الصدد والتي ارتكزت على تحسين المستوى الكيفي والنوعي للسكان عن طريق التحسينات التي تطرأ على البيئة الاجتماعية للسكان ، ويطلق عادة على هذا الاتجاه الفكري اسم « Euthenie » أي دراسة الوسائل المؤدية إلى رفع المستوى النوعي للسكان عن طريق تحسين البيئة الثقافية والاجتماعية لهم .

(1) The Race Betterment Foundation Michigan.

(2) The Institute of Family Relations.

(3) The Eugenics Education Society of Chicago.

(4) The Galton Society of N. Y.

(5) The International Federation of Eugenics Organization.

وفي مقدمة هذه الآراء ما يراه العلامة ردفيلد Redfield من أن لسن الزواج دوراً هاماً في تحسين نوع السكان ، فقد اتضح له ذلك من إحصاء قام به على ٥٧١ من رجال المجتمع الممتازين ، ووجد أن الطفل الذي يولد لأب مكتمل السن (حول الستين) يتاح له فرص التبرغ أكثر بأضعاف مضاعفة من ابن لأبوين صغيرى السن ، كما أنه انتهى إلى أن الإنسال البطيء Slow-Breeding يعتبر أمراً حيوياً لإنتاج نوع نابه ، وقدر أن السكان الذين ينسبون إلى نوع غير راق في خصائصه Inferior Stock يحتاجون إلى مائة عام لكي يصبح نوعهم أرقى Superior Stock ، وهذا النوع الراقى يحتاج إلى مائتي عام لكي يصبح نوعاً عبقرياً ممتازاً ^(١) .

وكذلك أشار العالمان وتنسكى W. S. Woytinsky و إند E. S. Woytinsky أن التحسينات النوعية ورفع المستويات الصحية تنوقف على رفع المستويات الاقتصادية في الجماعات المتخلفة ، أما في المجتمعات المتطورة نسبياً ، فإنها تتركز أساساً على تنسيق الخدمات الصحية ، ورفع المستوى الصحى يتركز في أساسه على عملية نهوض اجتماعية متكاملة ، ومعنى ذلك أن التحسين النوعى للسكان يبدو مرتبطاً بالمسألة الاقتصادية في المناطق المتخلفة ، ومتصلاً بالخدمات الاجتماعية في الدول الصناعية .

أما العلامة « هنتجتون Huntington » فيسلم بأن الأفراد الناهيين يغلب أن يكونوا أبناء لآباء كبار في السن نسبياً ، إلا أن « هنتجتون » لا يرجع ذلك إلى الكبر في ذاته ، وإنما يرجعه إلى أن التأخر في سن الزواج

(١) نحن لا نؤمن بهذا الرأى وتؤيد العلامة كارساوندرز Carr-Saunders في معارضته له فليس هناك من سبب يحمل على الاعتقاد بأن والدين كبيرين في السن يمكن أن ينجبا أولادا مختلفون في صفاتهم الموروثة النوعية عن النسل الذى أنجبناه في صدر حياتهما .

(٢) W.S. Woytinsky and E.S. Woytinsky, World Population and Production, Trends and Outlook N. y 953

يترتب عليه استقرار اقتصادى وتضاعف فرص تربوية قيمة ، هذا من الناحية الاجتماعية ، أما من الناحية البيولوجية أنه ربما كانت قوة الوالدين غير عادية مما جعلهم لا ينجبون إلا بعد فترة طويلة - نسيا - من الزواج ، وبالتالي اكتسب الأطفال قوة فيزيقية Physical Vigor ساعدتهم بلا شك على التفوق .

رأى العلامة جوليان هكسلى J. Huxley ^(١) :

ساهم « هكسلى » مساهمة فعالة فى أبحاث تحسين النسل ، وهو ليس عالما بيولوجيا فحسب بل هو فيلسوف اجتماعى أيضا وله آراء جريئة فى هذا الموضوع يمزج فيها بين العلم المستمد من البحث والتجربة وبين التأمل والتعمق فى شئون الاجتماع .

يرى « هكسلى » أن علينا أن نرسم سياستنا لتحسين النسل وفق الخطط الآتية :

أولا - منع آثار العقم : ويظن أن للطبقات العليا الاقتصادية من القدرة ما ليس لغيرها ، أو على الأقل من المقدرة لتنجح فى نظامنا الاجتماعى وإسكنها لا تناسل بسرعة حتى يمكن أن تحمل ذريتها محلها أما كاتبة أو كجزء مئوى من مجموع السكان . فعلى إذن محاولة علاج هذا الحال ، بالنصح الدينى والاستعانة بالوطنية ، وبالطرق المحسوسة الواضحة وذلك بإعطاء الرواتب الإضافية لأصحاب العائلات الكبيرة ، وتخفيض نفقات التعليم ، وانقاص ضريبة الدخل من أجل الأبناء . أما الطبقات الدنيا - وهى كما نزع - أقل مقدرة من غيرها - فإنها تناسل بسرعة كبيرة جداً نسيا - فعلى أن نعلمها طرق تحديد النسل ، بالألا نسمح بمساعدتها وباستفادتها من العلاج بالمستشفيات الحكومية ، حتى لا يكون فى القضاء على آخر عائق فى سبيل الانتخاب

(١) جوليان هكسلى : الإنسان فى العالم الحديث (مترجم)

الطبيعى Natural Selection ما يسهل إنجاب الأطفال أو بقاءهم .
ويجب أن يكون التعطل ذريعة لتحقيقها ، أو على الأقل تنوقف المساعدة
على عدم الاكثار من إنجاب الأطفال .

ثانياً — رسم الخطط لبيئة مثالية :

ولا شك أن المثل العليا للبيئة الاجتماعية تختلف اختلافا كبيرا
باختلاف الآراء والمفكرين غير أنها تلتقى جميعا عند تلك البيئة التى تهيء
الفرص للعمل المثمر الذى لا يتجاوز الحمد الذى يشعر عنده الأفراد
بالاجتهاد ، والذى لا تكون ثمراته مجرد الحصول على الضروريات فحسب ،
بل يمكن من تحقيق قدر معقول من طيبات الحياة وملاذها ، ويسر الحصول
على قدر مناسب من وقت الفراغ ، وفضلا عن هذا وذاك فإن البيئة المثالية
تمكن كل إنسان من التعبير عن مواهبه الفيزيائية والعقلية تعبيراً عالياً مثالياً
سواء فى ألعاب القوى الرياضية أو الآداب أو الفنون أو الخدمة الاجتماعية
وهذه الخطط تتطلب تغيراً جذرياً فى البيئة الاجتماعية للسكان ، فضلاً
عن التحكم فى « البلازما الجراثيمية الإنسانية » ، وتقتضى ارتفاعاً ملحوظاً
فى مستوى التغذية للغالبية العظمى من السكان ، حتى يكون كل فرد مزوداً
بالوحدات الحرارية اللازمة ، والعوامل المساعدة الملائمة للرياضة الصحية
وتحديد الطاقة الإنتاجية ، وتكافؤ الفرص التعليمية وهكذا نستطيع أن
نتأكد من أنه فى ظل تناسل الطبقات بطريقة أفضل ، سيقبل رفع مستوى
المعيشة من آثار العوامل الوراثية ، ويفتح المجتمع أنماطاً جديدة بالقدرة
العالية ، وستصبح الطبقات الفنية رافداً من روافد التحسن السلالى .

ويرى هكسلى فرق ما تقدم أن النظام الفردى التنافسى القائم على
الرأسمالية ، عاجز عن الانتفاع بما لديه من العوامل الوراثية القيمة وزيادتها ،
وعاجز عن تشجيع التغيرات الملائمة وإبعاد التغيرات الضارة ومن هذه

الزاوية يدعو هكسلى علماء تحسين النسل إلى محاولة تغيير النظام الاجتماعى ، بحيث تسير البيئة الاجتماعية فى اتجاه تصاعدى يزيد فرص الانتخاب التحسينى للسكان .

وأهم من ذلك علينا أن نحاول إيجاد نموذج حياة إقتصادية إشتراكية لا تكون عقيمة بالوراثة وعلينا أيضاً أن نحاول إيجاد نموذج للعائلة وللحياة التناسلية يمكن أن يسمح للعلم (تحسين النسل) بأن يكون أكثر سرعة وبناء .

ويبدو جلياً أن من الواجب التخلص من التراحم الفردى كحافز أساسى للرقى المالى والإجتماعى فى الحياة . وعلينا تنمية قوة الدوافع الجماعية والدوافع الجماعية قوية فى الحياة القبلية ، وكانت قوية فى كثير من المذنيات القديمة كالإبانية القديمة . ومع ذلك فأهم ما هممنا أن نعرف أنها نيجت إلى حد كبير فى أن تأخذ مكان البراعت الفردية الحالية ، أو على الأقل فى أن تقلل من أهميتها الإجتماعية فى كثير من الدول الحديثة وبخاصة ألمانيا النازية وجمهوريات الاتحاد السوفيتى .

ويستدرك جوليان هكسلى ، فيقول ليس من عمل علماء الحياة البحث فى المزايا الخاصة والإجتماعية لمختلف الفلسفات السياسية . ولكن قد يوز لهم أن يبينوا أن البواعث الإجتماعية ليست كلها متساوية فى الأهمية من وجهة نظر علم تحسين النسل . فثلاً كانت البواعث الجماعية فى ألمانيا النازية تتضمن تقوية الروح القومية والنشاط القومى بدلاً من التقليل منهما ، وهذا عكس ما يسعى إليه علم تحسين النسل . ولا مرأه فى أنه قد يقال أن نتيجة هذا العمل تهم علم تحسين النسل وهناك كثيرون يؤيدون أهمية الإجراءات التحسينية التى اتخذت فى ألمانيا تحت تأثير الآراء والعواطف الإشتراكية القومية حتى ولو كان بعضها عقيماً وغير علمى ، ولكنها إذا أدت فيما بعد إلى كثرة السكان والحرب . فلا بد أن تكون فاسدة . وعلينا فى مسائل التطور ، كما يعتقد هكسلى ، أن تأخذ بالرأى الطويل المدى .

هذه بعض مقتطفات من رأى العلامة جوليان هكسلى وهى كما سبق أن أشرت مزيج من العلم والفلسفة الاجتماعية .

هذا ويمكن أن نوجز ما أشار إليه العلماء بصدد مقترحات الوسائل الإيجابية لتحسين النسل فيما يلى :

١ — تشجيع الأصحاء على الزواج والإنجاب بصرف الإعانات والأوسمة.

٢ — قيادة حملات الدعاية المنظمة لتبصير الرأى العام بحماية هذا الموضوع .

٣ — وضع تشريعات تفرض ضرائب إضافية على الأصحاء الأقوياء غير المتزوجين .

٤ — تحديد الأجور مع مراعاة أن يعنى الحد الأدنى لهذه الأجور بحاجة الإنسان إلى السعرات الحرارية اللازمة لتوليد الطاقة والنمو .

٥ — تشريعات إجتماعية وصحية من أجل توفير ظروف العمل الملائمة.

٦ — تشريعات إجتماعية ترشيدية للانتفاع بأوقات الفراغ .

ثالثاً : الوسائل السلبية لتحسين النسل Negative Euginics^(١)

والمتحمسون للجانب السلبى لتحسين النسل ينادون دائماً بالتخلص من العراجل الوراثية غير المرغوب فيها وذلك بمنع الأفراد الحاملين، للعوامل الوراثية السيئة من أن ينجبوا أطفالاً . ولما كان هذا المنع ليس من السهل فقد اقترحت طرق ثلاث :

١ — منع تزواج جميع الناقصين defectives .

٢ — وضعهم فى مؤسسات .

٣ — التعقيم Sterilization .

وبخصوص الإقتراح الأول نجد أنه طريقة علاج مأمونة فعلاً ولكن

لبعض الشواذ الظاهرين فقط . ولهذا فإن كل الأفراد الذين يحملون الجينات المشوهة يصبحون هم أنفسهم مصدراً للتشويه . ولهذا فإن منع هؤلاء من الانسال تماماً سينتج عنه اختفاء أمثالهم كلية في الجيل التالي . ولا تفيد هذه الطريقة إذا كان النقص أو الخلل ظهر حديثاً عن طريق الطفرة Mutation . وتجدر الإشارة إلى أن أكثر العيوب الوراثية أهمية بما في ذلك حالات الضعف العقلي ليست ظاهرة ولكنها كامنة Recessive .

أما اقتراح وضع الشواذ في مؤسسات فيمثل حملاً باهظاً من الناحية المادية يتقل كاهل جيل أو جيلين . بل إن المؤسسات الموجودة فعلاً لا يمكن أن تتسع لأكثر من ربع الشواذ . وقد قدر العلامة « دانكان Durcan » عدد ضعاف العقول فقط الموجودين في الولايات المتحدة سنة ١٩٢٧ بحوالى ٦٠٠.٠٠٠ . وهاك بالطبع فئات ناقصى العقول والمصابين بالصرع والجنون وبغيرها من الأمراض التى تنتقل بالوراثة .

أما الإقتراح الثالث وهو التعقيم فهو عبارة عن عملية جراحية تجرى على المصابين بالأمراض والعيوب والتشوهات الوراثية . ولا يفقد الأشخاص الذين تعمل لهم هذه العملية صفاتهم الجنسية كما لا يدل مظهرهم الخارجى على أن هذه العملية قد أجريت لهم ، ولكنهم لا يستطيعون انجاب أطفال . ويبدو أن هذا الإقتراح أسهل الإقتراحات الثلاث وأقلها ضرراً . إلا أن الأخذ به يلقى معارضة بعض الفئات ، الذين يرون في التعقيم مخالفة وتدنيس للشرائع معتقدين أن لكل إنسان حق مقدس divine right فى الزواج والإنجاب بصرف النظر عن شذوذ ما ينبج . وفريق آخر من المعارضين يبنون وجهة نظرهم المعارضة على أساس أننا لا نعرف القدر الكافى عن حقائق الوراثة التى تمكننا من التعرف بالضبط على من يعقموا ومتى يعقموا ؟ وقد أخذت بعض الدول بسياسة المنع والتعقيم ونصت على ذلك

في قوانينها ونظمها ، وفي بعض البلاد لا تتم عملية التعقيم هذه إلا باستشارة الفرد أو باستشارة أوصيائه . وفي بلاد أخرى تتم هذه العملية إجبارياً بحكم قضائي .

وفي مقدمة البلاد التي تأخذ بسياسة العزل والتعقيم الاتحاد السوفيتي وبعض الولايات الأمريكية ، وحددت الحالات التي يمنع فيها الزواج أو يجري لها التعقيم كالآتي : ^(١)

١ — حالات النقص العقلي Mental defectiveness

٢ — حالات الضعف العقلي Feeble-mindedness

٣ — حالات الصرع Epilepsy

٤ — الإحرام بالعادة .

٥ — إدمان الخمر Alcoholism

وقد لجأت كثير من الدول في الوقت الحاضر إلى اتباع هذه الطرق لحماية شعوبها من مظاهر النقص العقلي والضعف، دون أن يعنى ذلك بالضرورة وفي كل الأحوال الخدمن الزيادة السكانية أو تحديد النسل ، وهذا واضح في الاتحاد السوفيتي فمع أن الايديولوجية الاشتراكية تتعارض مع سياسة تحديد النسل ، إلا أنه في الوقت ذاته تأخذ بالوسائل الحديثة في تحسين السلالات .

وتعد إنجلترا في مقدمة الدول التي قطعت شوطاً بعيداً في ميدان تحسين النسل وتدلنا الإحصاءات الأخيرة لعام ١٩٥٣ أن حوالي ٥٠.٠٠٠ شخص من ناقصي التركيب العقلي أو الفيزيقي قد تم وضعهم في معازل تحت المراقبة .

وجرت كثير من ولايات الولايات الأمريكية المتحدة على سن تشريعات ملزمة للأخذ بسياسة التعقيم والعزل . ففي سنة طبق القانون المتعلق بالعزل

والتعقيم في ٢٣ ولاية من مجموع الولايات الأمريكية الثمان والأربعين .
وتدل الإحصاءات التي تنشرها مراكز العزل والتعقيم على أنه قد تم
أجراء ٦٠٠٠ عملية للتعقيم في سنة ١٩٢٦ وحدها .
وقد اقترح - كخطوة تمهيدية - أن يلزم كل شخص بتقديم شهادة
عند شروعه في الزواج تتضمن تاريخه الشخصي والأسرى والأمراض
التي أصيب بها ، ونتائج الفحص الطبي العام الذي يجري في ولايته .
وقد أخذت بعض الدول فعلا بهذا الاقتراح وأصدرت تشريعات
بتقديم هذه الشهادات ، إلا أن هذه التشريعات لم تصل بعد إلى درجة
الالزام القهرى .

المطلب الثاني

الخصومة المتباينة في الطبقات الاجتماعية

يلاحظ في الوقت الحاضر ، وفي ضوء الدراسات الديموجرافية المعاصرة ، أن النقص في معدل المواليد أكثر ظهوراً في الجماعات والطبقات التي على قدر كبير من التعليم ، وهي الطبقات التي تستطيع أن تولى أطفالها العناية الاجتماعية الملائمة لتنشئتهم في ظروف نوعية إرفاقية ، فلا شك أن النساء المنعلمات مثلاً أقدر على تحمل مسؤوليات الأمومة من الجاهلات ، وقد ورد في كتاب دون ، الوارثة والسلالة والمجتمع ، نتيجة بعض الدراسات الديموجرافية المونوجرافية في جماعة أمريكية على نحو ما هو مبين في الجدول التالي الذي يبين متوسط عدد أطفال الأمهات اللاتي بلغن من العمر ٤٥ — ٩ ، سنة موضحاً ما بلغه من تعليم وثقافة :

عدد سنوات الدراسة للأمهات	عدد الأطفال
لم تأخذ تسطاً من التعليم .	٣,٩٥
مضين من ١ — ٤ سنوات في مدرسة متوسطة	٤,٣٣
٥ — ٦ " " " "	٣,٧٤
٧ — ٨ " " " "	٢,٧٨
١ — ٣ " " " " في مدرسة عالية	٢,٢٧
٤ سنوات في مدرسة عالية	١,٧٥
٣ سنوات في كلية جامعة	١,٧١

راجع Dunn: Genetics in the 20th . Century كتاب الوراثة والله والمجتمع تأليف دون ودبرها نكي (مترجم) .

وفي ضوء هذا الجدول نلاحظ العلاقة العكسية بين ثقافة الأمهات وعدد ما ينجبن من أطفال .

هذا وقد أجريت تحليلات إحصائية نوعية على الخصوبة التناسلية واختلافها باختلاف الطبقات الاجتماعية وذلك على النحو الآتي .

في عام ١٩٣٥ وجد أن أطفال الأسر التي يقل دخلها السنوي عن ألف جنيه ضعف عدد أفراد الأسر التي يتراوح دخلها السنوي بين ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ جنيه ، وأطفال هذه الأسر الأخيرة أكثر بنسبة ٥٠٪ من أطفال الأسر التي يكون دخلها ٣٠٠٠ جنيه أو أكثر بكثير . ووجد أن أطفال عامل المزرعة أكثر بكثير من عدد أطفال مالك المزرعة . كما وجد أن أطفال العامل الماهر الممتاز أقل من أطفال العامل غير الممتاز . أما أصحاب الأعمال والكتابة والموظفين فأقل الجميع أنجاباً للأطفال .

وعندما فحصت مقاييس الذكاء في أطفال هذه الأسر ، وجد أن معدل الذكاء كان يقل في الأسر التي يرتفع فيها عدد الأطفال ويزيد في الأسر التي تنقص عدد أطفالها . والجدول التالي يبين مدى اختلاف معدلات الذكاء باختلاف عمل الآباء : (١)

الوظيفة	متوسط الذكاء بالنقط
موظفون (رجال حرف)	١٢٥
رجال أعمال وكتابة	١٢٠
عمال مهرة ممتازون	١١٣
عمال عاديون	٥٦

وتبين الخصوبة عند الطبقات الاجتماعية المختلفة معناه أن الأجيال

(١) من كتاب دون : الورانة والالة والمجتمع .

المقبلة ستجدر بنسبة أعلى من الطبقات الأكثر خصوبة وبنسبة أقل من الطبقات الاجتماعية الأقل خصوبة. ولكن حظ الطبقات الاجتماعية الأقل خصوبة من الذكاء أقل. وأكثر هذه الطبقات ذكاء تمنع نفسها بنفسها من انجاب النسل وتحمل عبء الأبوة. وعلى هذا فإن معدل الذكاء يقل في الأجيال القادمة، حتى أن بعض الهيئات الموثوق بها في أمريكا ترى أن معدل الذكاء سيكون انخفاضه أسرع من ذلك بكثير.

اختلاف الطبقات في الخصوبة:

هذا وللعلامة فرانك نوتشتين Frank Notestein مقال حول اختلاف الخصوبة باختلاف الطبقات الاجتماعية الاقتصادية، بمعناها الواسع العريض، والعناية باتجاهات هذه الاختلافات وبعض العوامل البيئية المتصلة بها، والمشكلات التي ينبغي أن يوجه إليها البحث، إذا ما أردنا أن نفهم دلالة هذه النواحي المرتبطة بعضها ببعض الآخر.

ومن المرجح أن الاختلافات في الخصوبة بين الطبقات الاجتماعية الاقتصادية لم تصبح ذات شأن ملحوظ، إلا بنمو ثقافتنا الحضرية الصناعية الحديثة. وإحقاقاً للحق، لقد لاحظ الباحثون - على مر عصور التاريخ الإنساني - أن الطبقات العليا، لا تتكاثر بنفس النسبة التي تتكاثر بها الطبقات الدنيا، إلا أن تلك الملاحظات إنما تنصب على الطبقات المتقنة والفئات الحاكمة، التي لا تمثل الاشرذمة ضئيلة جداً بالنسبة لمجموع السكان

أعيد طبع هذا المقال من المجلة السنوية الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية .
عدد نوفمبر ١٩٥٦ - من ص ١ - ١١ بإذن من المؤلف والناشر .

The Annals of the American Academy of Political and Social Science, Nov. 1936.

Reprinted in Class, Status, and Power, edited by Reinhard Bendix and Seymour Martin Lipset & Kigan Poul, 1945 pp. 271-281.

وقد ترجم المؤلف هذا المقال وراجعه الدكتور يوسف مراد ونشر في العدد الثاني من مجلة اليونسكو التي تصدر بعنوان « مطامع في العلوم الاجتماعية » ربيع ١٩٥٩ .

في المجتمعات التي تقوم اقتصادياتها على الزراعة والحرف اليدوية .
غير أن نوتشين وجه عنايه إلى القطاعات الرئيسية للسكان : وأعنى سكان
المجتمعات الحضرية الذين يمثلون اليوم أكثر من نصف مجموع السكان
عامة بينما يمثل أفراد الطبقات الراقية الربع على وجه التقريب ، فضلا
عن أن هذه الطبقات ليست على جانب من الخصوبة ، يمكنها من الاحتفاظ
بعدد أفراد على ما هو عليه ، أو يمكنها من اخلاف عدد يماثلها من الأفراد
بل إنه يمكن للمرطن تجديد إخلافها عن طريق طبقات الريفيين والعمال
الذين يعتبرون ، بحق روافد (ومستودعات) سكانية للأمة . وفي ضوء
هذا المقياس ، تبدو مسألة اختلافات الخصوبة كمشكلة حديثة العهد .
وحتى إلى هذه اللحظة ، لا يمكن القول بأن العلاقة بين الخصوبة والمركز
الاجتماعي الاقتصادي ، تمثل ارتباطاً عكسياً دائماً وفي كل المجتمعات ، فهذا
الارتباط العكسي خاصية مميزة ، يمكن ملاحظتها في المجتمعات الصناعية
في أوروبا وأمريكا ، أما معلوماتنا عن الجماعات السكانية الأخرى
(خارج أوروبا وأمريكا) فمحدودة جداً ، غير أنه يمكننا أن نلاحظ
بينها بعض الأمثلة للاستثناء من القاعدة العامة ، فالصين مثلاً ما زالت
تمثل بصفة رئيسية بلداً ذا نظام اقتصادي زراعي ، نظام يعلق أهمية
غير عادية على استمرار الأسرة وهناك قام لامسون Lamson
بدراسة مجموعة من العينات الصغيرة ، مأخوذة على نطاق واسع من مجتمعات
حضرية ، فوجد أن المتعلمين والأغنياء ينجبون أطفالاً أكثر عدداً
من الجهلاء والفقراء^(١) . في الريف الصيني تبدو الاختلافات في الخصوبة
بين المجموعات المتفاوتة في مستوياتها الاقتصادية أمراً غير ذي أهمية نسبية ،

Herbert D. Lamson, "Differential Reproduction in (١)
China", The Quarterly Review of Biology, Vol. 10, No. 3 (Sept.
1935), pp. 308-321.

غير أنها إذا وجدت فإنها تشير أيضاً إلى ارتباط مباشر بين الخصوبة والمركز الاقتصادي . وقد قامت بعض الأوساط العلمية بجمع معلومات^(١) حديثة حول هذا الموضوع ، وذلك من خلال دراسة أحوال ما يقرب من ٤٠,٠٠٠ أربعين ألف أسرة ، موزعة من حيث إقامتها على ١٠١ مجتمعاً ريفياً ، ولم تمدنا هذه المعلومات بأى دليل يثبت أن المتزوجات من أسر الملاك العاديين land-owner أكثر أو أقل خصوبة منهن في عائلات كبار الملاك land-lord ومستأجرى الإقطاعيات tenants ومع ذلك فقد ثبت بوضوح أن هناك ثمة علاقة إيجابية بسيطة مطردة بين الخصوبة ومساحة المحصولات crop area في المزرعة ، فقد أتضح أن النساء المتزوجات في العائلات التي تملك أكبر المزارع مساحة في المنطقة ، ينجبن أطفالاً أكثر عدداً مما تنجب نظيراتهن في العائلات التي تملك أصغر المزارع مساحة في نفس المنطقة] ومهما تكن دلالة تلك العلاقة المباشرة بين الخصوبة والمركز الاقتصادي للعائلة ، فإنه من الواضح على أقل تقدير أن اختلاف الخصوبة باختلاف الطبقات الاقتصادية في الصين ، يغير تماماً الاختلافات الملحوظة بين تلك الطبقات في المجتمعات الصناعية الغربية .

ولماذا تتبعنا العلاقة بين الخصوبة والمركز الاقتصادي في إنجلترا ، نجد أن هناك شواهد يقينية تدل على أن العلاقة العكسية بين الخصوبة والمركز الاجتماعي الاقتصادي ، أخذت تتطور تطوراً سريعاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولقد أمكن التمييز بين خمس طبقات عامة ، وثلاث طوائف مهنية خاصة ، وخصوبة كل طبقة محسوبة على أساس

(١) اشترك في جميع هذه المعلومات أمثبات الآتية :

متوسط عدد الأطفال المولودين - يعبر عنها كنسبة مئوية لعدد الأطفال في جميع الطبقات مع مراعاة تشابه تاريخ الزواج ، ولا شك أن عرض الموضوع على هذا النحو يخفي الحقيقة النابتة بأن الخصوبة في كل الطبقات أخذت في التناقص في هذه الفترة ، ومع هذا فإن التناقص كان أكثر سرعة في الطبقات العليا عنه في الطبقات الدنيا ، وأكثر سرعة في الطبقات الحضرية عنه في الجماعات الزراعية والجماعات التي تعمل في المزارع . ولا يمكن إنكار تأثير هذه الاتجاهات المختلفة على الخصوبة بالنسبة لكل طبقة . وبين النساء المتزوجات في الفترة من ١٨٥١ إلى ١٨٦١ كانت العلاقة عكسية بين الخصوبة وبين المركز الاجتماعي الإقتصادي ، إلا أن الاختلافات بين الطبقات كانت ضئيلة وتنبئ المعلومات أن هذه الاختلافات كانت أكثر ضآلة في الفترة السابقة على هذه الفترة . ومهما يكن من شأن هذه الاختلافات فإن الثابت أنها ازدادت بسرعة بعد عام ١٨٥١ ، فقد يزايد حجم الطبقات أكثر من مرتين ونصف بزيادة الزيجات المعقودة بين عامي ١٨٨٦ ، ١٨٩١ عنه وقت بدء التسجيل ومنذ ذلك التاريخ يحتمل أن تكون الاختلافات قد قلت ، إلا أن هذا الاستدلال أو الاستنتاج لن يكون جازماً لأنه يتعلق بنساء ذوات خصوبة مستمرة وقت إجراء التعداد .

ومن المحتمل أن نجد في القرن الحالى ما يعزز بقوة العلاقة العكسية بين الخصوبة والمركز الاجتماعي الإقتصادي في الولايات المتحدة ، فقد قام كايبر Kiser^(١) بدراسة جماعات مختارة من السكان البيض الوطنيين في شمال شرق الولايات الوسطى ، فوجد أن انخفاض الخصوبة بوجه عام نجم عنه تزايد الاختلاف بين الطبقات الحضرية والطبقات الريفية وذلك في الفترة من ١٩٠٠ إلى ١٩١٠ .

Census of England and Wales 1911, Vol. XIII, Pt II, London : His Majesty's Stationery Office, 1923.

Clyde V. Kiser, "Trends in the Fertility of Social (١) Classes from 1910" Human Biology, Vol. 5 No. 2 (May 1933).

وقد كشف « أوجبرن Ogburn ^(١) »، في دراسته لحجم الأسر في نفس الإقليم عن تزايد مماثل للاختلاف وذلك في الفترة ما بين ١٩٠٠، ١٩٣٠. ولقد وجد أن نقص حجم الأسرة في الجماعات الحضرية كان أكبر نسبة في طبقات أصحاب المهن الحرة وأقل نسبة بين العمال غير المهرة، بينما دل تغير حجم الأسرة في الجماعات الريفية على تغير بسيط في الخصوبة. وليس هناك دليل قاطع حول ما إذا كان الاتجاه العام يسر نحو الاختلاف المتزايد في خلال الفترة كلها أم لا. ولقد قدم هولبتون Whelpton بيانات تشير بوضوح إلى أن الاختلاف في خصوبة الجماعات الريفية والحضرية آخذة في الهبوط في العصر الحاضر. وقد يصدق هذا القول نفسه على الاختلافات بين الطبقات المختلفة في كل جماعة.

هذا، وبينما تأخذ الاختلافات في الخصوبة بين الطبقات الاجتماعية الاقتصادية في الهبوط بدرجة ما، تظل العلاقات العكسية ثابتة. ولقد أثبت عدد من الدراسات الحديثة صحة هذه الحقيقة، ليس فقط بالنسبة للبلد الواحد ككل، بل أيضاً بالنسبة للسكان جميعاً في مختلف المجتمعات، متدرجين من الريف الواسع والقرى الزراعية إلى المدن الكبيرة، وحتى بالنسبة للقطاعات الفقيرة من المدن الكبيرة، حيث يتوقع الإنسان أن يجد من العوامل القوية ما يحقق تجانساً كبيراً ^(٢).

ولاشك أن تزايد اختلاف الخصوبة بين الطبقات قد ارتفع أساساً كنتيجة لانخفاض معدل المواليد، الذي كان سريعاً في الطبقات العليا أكثر منه في الطبقات الدنيا، وكان أسرع في الحضر منه في المجتمعات الريفية.

William F. Ogburn and Clark "The Family and its (١) Functions", Chap. 13, Recent Social Trends in the United States (New York and London; McGraw. Hill Book Co. 1933), Vol 2, p. 686.

(٢) أنظر مثلاً من تلك الدراسات الحديثة.

Raymond Pearl, "Differential Fertility", The Quarterly Review of Biology, Vol. II No. 1 (Morch 1927), pp. 102-118.

W. F. Ogburn and Clark Tibbitts, "Birth Rates and Social Classes", Social Forces, Vol. 8 No. 9 (Sept 1929). pp. 1-10.

ولقد اتضح أن هذه التجمعات المختلفة قد نشأت أساساً بسبب الاختلاف في استعمال وفاعلية منع الحمل^(١) ، ويميل بعض الباحثين إلى إرجاع هذه العلاقة المتغيرة في مجموعها إلى التخلف في انتقال معرفة وسائل منع الحمل من طبقة لأخرى وإلى النظر إليها كملاقة مؤقتة أكثر منها علاقة دائمة ، وأن هناك من الأدلة العقلية ما يحمل على الاعتقاد بأن الاختلافات بين الطبقات سوف تضيق ، بل ربما قد تنعكس إذا خضعت خصوصية جميع الطبقات لإشراف أكثر شمولاً ، فإذا ما وضعنا تخطيطاً ، للدواليد ، فإن عدد الأطفال سيكون متناسباً مع مقدرة الآباء على إعالتهم . ويشير أصحاب هذه الفكرة إلى أن هذا الأمر قد تحقق بالفعل في استوكهم ، حيث أصبحت المعلومات الخاصة بمنع الحمل ميسرة منذ وقت طويل ، وحيث أصبح معدل المواليد الآن أقل كثيراً من المستوى المطلوب للإخلاف الدائم . كما يتضح ذلك من الجدول رقم ١ المبين فيما يلي^(٢) :

المجموع	الفنون والوظائف	التجارة	آخرون	العمال	الداخل
١١٠	١١٠	١١٠	١٤٠	١١١	أقل من ٤,٠٠٠
١١٢	١١٢	١١٥	١٢٠	١٠٩	٤,٠٠٠ — ٦,٠٠٠
١٢٥	١٢٧	١٣١	١٢٥	١٠٥	٦,٠٠٠ — ١٠,٠٠٠
١٥٤	١٥٤	١٥٤	١٥٢	—	١٠,٠٠٠ فأكثر
—	١٢٣	١٣٤	١٢٤	١١٠	المجموع
—	١٢٥	١٢٨	١٢٢	١٠٧	المجموع غير المعياري

جدول ١ — المادلات الفنية لخصومة أربع جماعات مهنية في استوكهم من عام ١٩١٩ إلى ١٩٢٢ ، مع تقسيم فرعي لها طبقاً لدخل الطبقة .
(١) انظر مقال ريموند بيرل .

Raymond Pearl, The Annals, Nov. 1936-es

(٢) هذا الجدول مأخوذ عن كارل أرفيد أدن ، وإدوارد ب . في هتشنسون دراستهما لاختلافات الخصوبة في السويد .

Karl Arvid Edin and Edward P. Hutchinson, Studies of Differential Fertility in Sweden. 116 Pp. (London : P. S. Kinn & Son Ltd 1935), p. 59.

والمعلومات والبيانات الواردة في الجدول خاصة بالترويجيين .

فقد وجد كل من أدین «Edin»، وهتشنسون Hutchinson أن المزوجين في الطبقات العليا في استوكهولم أكثر خصوبة من نظرائهم في الطبقات الدنيا. ويعتبر الدخل عاملاً أكثر أهمية من المهنة في تحديد هذه العلاقة ، فبين الجماعات المتساوية في الدخل ، تنعدم العلاقة بين الخصوبة والمهنة . ومن ناحية أخرى ، لوحظ في كل جماعة مهنية — باستثناء العمال الصناعيين — أن الخصوبة تزداد بشدة كلما قل الدخل ، وقد وجدت بعض العلاقات العكسية المماثلة في قليل من المدن الأوروبية الأخرى وإن كانت العلاقة لا تبدوا بمثل هذه القوة وهذا الواضح .

وتفسر العلاقة العكسية الموجودة عادة بين الخصوبة والمركز الاجتماعي الاقتصادي ، على أنها تخلف في انتشار معرفة وسائل منع الحمل ، فهو زيادة في التبسيط لعلاقة سببية معقدة. ولا شك أن عامل منع الحمل هو أهم العوامل التي أمكن بواسطتها ضبط الخصوبة وتحديد ها ، إلا أنه يمكن إرجاع الاختلافات الأساسية في مدى انتشار وفاعلية سياسة منع الحمل إلى : الاختلافات في العادات الجمعية customs والعادات الفردية habits ، والاتجاهات والاهتمامات الناشئة من تعقد الاختلافات في بيئة الطبقات . ويجب أن نوجه النظر إلى هذه الاختلافات البيئية كأسباب أساسية لكثير من اختلافات الطبقات في الخصوبة ، وعوامل تغيرها ^(١) ويجدر بنا في هذا المجال أن نناقش باختصار بعض هذه العوامل البيئية .

عامل التربية

من المعروف المتواتر منذ مدة طويلة أن التعليم الواسع المدى ، والخصوبة المنخفضة ، يسيران جنباً إلى جنب ، وإن أي عدد من الدراسات يقارن فيها بين خصوبة خريجي الجامعات وخصوبة غيرهم من غير الخريجين ،

(١) وكما أن الاختلافات بين الأفراد ترجع إلى عدة عوامل تتضمن أيضاً الاختلافات التوارثية المتوارثة ، فكذلك الشأن بالنسبة للاختلافات بين الطبقات غير أن هذا الموضوع يخرج عن نطاق دراستنا الحالية ولذلك استبعدنا الحديث عنها .

أو أشخاص آخرين يشبهونهم بوجه عام في «طرق معيشتهم» ، ليشير إلى هذا الاتجاه نفسه ^(١) . وعلى أية حال فهذه الدراسات تشير إلى أن الخصوبة المنخفضة للجامعيين ، ترجع أساساً إلى قلة النسبة التي تزوج بينها ، وإلى سن الزواج المتأخر ، أكثر من من كونها نتيجة ضعف خصوبة المتزوجين منهم .
هذا وقد لاحظ العلامة نوتشتين Notestein .

١- أولاً : أن التحصيل الدراسي والخصوبة يرتبطان ارتباطاً عكسياً ، ليس فقط في العينة العامة لكل مجتمع ، بل أيضاً داخل الطبقات المهنية الواسعة نسبياً . فالإختلافات في الخصوبة بين خريجي الجامعات وخريجي المدارس العليا أقل نسبياً إذا ما نورنت بالإختلافات في الخصوبة بين خريجي المدارس العليا وخريجي المدارس العامة . ويبدو أن الحصول على قدر متوسط أو محدود من التعلم ، يكون مصحوباً بانخفاض كبير في الخصوبة .

٢- ثانياً : أن الارتباط العكسي بين الخصوبة والمركز المهني العام يصدق ، أو بظل قائماً ، حتى إذا كانت المقارنة مقصورة على جماعات تعليمية أو مستويات تربوية متشابهة .

٣- ثالثاً : يبدو أن الخصوبة في كل طبقة مهنية أو تربوية تعليمية ، تتأثر بالخصائص العامة للمجتمع أو البيئة الاجتماعية المحلية . فعدلات المواليد تبلغ أقصى علوها في الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى ، ولكنها تنخفض باطراد في المدن السغرى مثل كولمبس وسيراكوز . وتصدق هذه العلاقة عندما تكون المقارنة مقصورة على جماعات مهنية وتعليمية متماثلة .

(١) انظر أمثلة على هذه الدراسات في البحوث الآتية :

Willystine Goodsell, "The Size of Families of College and College Women", The American Journal of Sociology, Vol. XLI, No. 5 March 1936.

May Roberts Smith "Statistics of College and Non-College Women," Quarterly Publications of the American Statistical Association Vol. 7 (1900) , pp 1 - 26.

٣ - عامل الدين :

وتقدم لنا بعض الدراسات الميدانية ، معلومات قيمة حول العلاقة بين الخصوبة والمذهب الدينى - الذى يعتنقه من أجريت بينهم تلك الدراسات فتجد مثلاً أن الكاثوليك أكثر خصوبة من البروتستانت ، ولو أن الاختلافات تكون أعظم بين عائلات أصحاب الأعمال منها بين العمال غير المهرة ؛ ففي هذه الطبقة الأخيرة تظل نسب العائلات الكبيرة كما هي . ومن الواضح بنفس الدرجة أن كلا من الجماعتين الدينتين تبدى خاصية الارتباط العكسى بين الخصوبة والمركز المهنى ، على الرغم من أن هذا الارتباط أقوى بين البروتستانت منه بين الكاثوليك ، وتتفق هذه النتائج فى روحها العامة مع الدراسة التى أجريت على رواد عيادة تحديد النسل فى مدينة نيويورك^(١) . وتظهر هذه الدراسة أن - حتى بين الجماعة المختارة من بين الذين كانوا يترددون على العيادة ، كانت ممارستهم لمنع الحمل قبل زيارة العيادة ، أقل حدوثاً وأضعف فاعلية وتأثيراً عنها بين رواد العيادة من البروتستانت واليهود . ونحملنا هذه المعلومات على الاعتقاد اعتقاداً حازماً أولاً : بأن الخصوبة أقل انضباطاً بين الكاثوليك عنها بين البروتستانت وثانياً : بأن الخصوبة فى كلا الجماعتين الدينتين تستجيب فى نفس الاتجاه لبيئات متماثلة .

٣ - عامل مركز الدخل

وترتبط الخصوبة كذلك ارتباطاً عكسياً بمركز الدخل . ويصدق هذا على الخصوبة بين الأسر التى اختبرت من الأحياء الفقيرة فى بعض المدن الكبرى

(١) Regine K. Stix and Frank Notestein, "Effectiveness of Birth Control", The Milbank Memorial Fund Quarterly Vol. VIII, No. 2 (April 1935) pp. 162-178.

وقد تبين بوضوح أن النساء في الأسر ذات الدخل الذي يقل عن ١٢٠٠ دولار في عام ١٩٢٩ أكثر خصوبة من نظيراتهن في الأسر التي دخلها ٢٠٠٠ دولار أو أكثر . ويوجد أيضا نفس النمط من العلاقة بالنسبة لطبقة أصحاب الأعمال ويجب أن نفطن إلى أن اختلاف خصوبة الفقراء والأغنياء لا يوضح بالضبط تأثير الدخل في حد ذاته على الخصوبة ، أكثر مما توضح اختلافات الخصوبة بين الجماعات التعليمية أثر التربية في حد ذاتها عليها . وإذا كنا عندما نتكلم بوجه عام نعتمد بالفقراء غير المتعلمين والمال اليدويين وخاصة فئة غير المهرة ، فإن تصنيفات الجماعات على أساس أية خاصية ستكشف عن علاقة مستويات الخصوبة بالعوامل الأخرى بل بعوامل أكثر من ذلك مما يساعد على تحديد العادات الجمعية والفردية والاتجاهات والإهتمامات للجماعات ذات المركز المنخفض أو الأدنى . وعلى هذا النحو تكون جميع الخواص متشابهة إلى درجة تجعل من المستحيل فصل بعضها عن البعض الآخر فصلاً تاماً .

ومن المهم بوجه خاص في تحديدنا لعلاقة الفقر بالخصوبة أن نفطن إلى الطبيعة المعقدة للخواص الطبقية ، وكثيراً جداً ما يفترض أن الخصوبة العالية للفقراء تشير إلى التأثير المباشر للفقر أو انعدام الدخل في تنشيط الخصوبة ، والشواهد هنا ناقصة تماماً . إذا يبدو أنه من الممكن أن يرتبط الفقر بالخصوبة من خلال طرق المعيشة التي هي في الوقت نفسه أسبابه ونتائجه . وإذا ما استقرت طرق المعيشة هذه فإنها تكون بطيئة التغير .

وعلى أساس هذه النظرة لواقع الأمر ، فإنه يكون من الصعب توقع أن يعمل الضغط الاقتصادي المتزايد كمشتط مباشر للخصوبة .